لا يا حضرة القاضي

أنا مستأنف

للأستاذ عبد الجواد رمضان

قرأت ما كتب القاضي الفاضل الأستاذ علي الطنطاوي في العدد الأخير من الرسالة، تحت عنوان: «أنا مع سيد قطب»

ولا كلام لي مع سيد قطب، ذلك الأستاذ الذي أحبه، وأجله — على غير رابطة ولا اتصال — وأشهد الإخلاص في كل ما يكتب، وإن خالف وجهة نظري أحيانا؛ ولا مع تلميذي وصديقي الأستاذ رجب البيومي، الذي آلمني — علم الله — أن يتورط في موقف لا خير فيه

تأججوا والتهبوا وصاروا خير أمة أخرجت للناس

فما ثمة:

وعلى كل حال فالدين الذي جاء به محمد دين عالمي فيه للبصيرين أشرف معاني الروحانية وأعلاها، فاعرفوا له فضله ولا تبخسوه حقه، فقد مضى على ظهور محمد ودعوته مئتان وألف عام ولا يزال هو الدين القويم والصراط المستقيم لأكثر من خمس العالم، يؤمن به أهله من أعماق أفئدتهم، ولا أحسب أن أي أمة حتى أمة النصارى قد اعتصمت بدينها اعتصام المسلمين بالإسلام، لأنهم يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد، وكيف لا وهو أصلح دستور للحكم وأقوم طريق لقيادة الشعوب إلى السلام الدائم والعدل المقيم. وإن في استطاعة المسلمين ذوي الغيرة في الله والتفاني في حبه، أن يأتوا شعوب الوثنية بالهند والصين واللايو، فيهدموا أصنامهم ويشيدون مكانها قواعد الإسلام. ونعم ما يفعلون

إن العالم اليوم في حاجة إلى قيادة حكيمة وحكم قوي يؤمن بالمثل العليا لينفذه مما هو فيه. ولن يكون له ذلك إلا في الإسلام الصحيح واتباع دعوة محمد صلى الله عليه وسلم

تم البحث — عبد الوهيد عبد الحافظ

وإنما دفعني دفعا إلى كتابة هذه الكلمة، حديث ذلك الكاتب الرائع، المؤمن حق المؤمن، الذي تطير بي كتاباته إلى آفاق من الروحية، يعييني التطلع إليها عند غيره من كرام الكاتبين: الأستاذ علي الطنطاوي، وما أصدره من أحكام تعوزها «الحيثيات» ويحوجها التعليل

وقد حاولت أن أهزمه بضربة قاضية من أول جولة، حتى لا أدع له فرصة مساجلتي أو الرد علي، فبحثت في أعداد الرسالة التي تملأ البيت عن مقال له في بني أمية نشرته منذ سنتين أو ثلاث على ما أذكر، طار بهم فيه إلى عنان السماء؛ ثم أنسخه وأبعث به إلى الرسالة لتعيد نشره من جديد، فأظفر بالفلج من أيسر طريق؛ ولكن الحظ كان منه علي، فقد ذهب بحثي أدراج الرياح، بعد عناء طويل

وإني أختصر الطريق إلى فضيلة القاضي، فألقاه وجاها، دون مداورة ولا مجاملة، ولا احتيال؛ وأقرر — في صراحة — ١ — أنه أحال، في اعترافه «بأن لبني أمية في نشر الإسلام، وفي فتح الفتوح فضلا لا ينكره أحد، ثم انكاره أن تكون دولتهم دولة إسلامية — ٢ — وأنه أخطأ في أن معاوية هدم أكبر ركن في صرح الدولة الإسلامية حين أبطل الانتخاب الصحيح وجعله انتخابا شكليا مزيفا، وترك الشورى الخ الخ

ومعاوية رضي الله تعالى عنه من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد كتاب وحيه؛ والخلافة مسألة اجتهادية لم ينص فيها الشرع على وضع معين، اتكالا على الاجتهاد فيها لمصلحة المسلمين؛ فقد لحق الرسول بالرفيق الأعلى دون أن يقرر فيها رأيا خاصا، واستخلف أبو بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنهما؛ ووضعها عمر في أهل الشورى. روى الطبري أن عمر رضي الله عنه لما طعن، قيل له: يا أمير المؤمنين لو استخلفت؟ قال من أستخلف؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته، فإن سألني ربي، قلت: سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا، استخلفته، فإن سألني ربي قلت: سمعت نبيك يقول: إن سالما شديد الحب لله. فقال له رجل: أنا أدلك عليه: عبد الله بن عمر، فقال: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، ويحك! كيف أستخلف رجلا عجز

عن طلاق امرأته ؟ وأنظر ، فإن استخلفت ، فقد استخلف من هو خير مني ، وأن أترك ، فقد ترك من هو خير مني ، وأن يضيع الله دينه ، وما أريد أن أتحملها حيا وميتا . عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنهم من أهل الجنة الخ

وقد ولى معاوية بعد صراع ، وجحت فيه كفته سياسيا ، ثم حربيا بعد اختلاف جند على عليه ، ثم صالحه الحسن ، وسلم له الأمر ، بعد استشهاد الإمام فاجتمع عليه أمر الأمة ، ولا تجتمع أمة محمد على ضلالة

عن الزهري ، أن الحسن بن على لما استخلف ، كان عنده شرطة الخميس التي ابتدعها العرب ، وكانوا أربعين ألفا بايعوا عليا على الموت ، وعلى مقدمتهم قيس بن سعد ؛ ولكن الحسن كان لا يريد القتال ، وإنما يريد الدخول فى الجماعة ؛ وكان قيس يخالفه فى هذا الرأى ، فشغب الجند بالحسن ، ونهبوا سرادقه ، حتى نازعوه بساطا كان يجلس عليه ، وطعنه أحدهم ؛ فلما رأى الحسن تفرق الأمر عنه ، بعث إلى معاوية يطلب الصلح ، وخطب أهل العراق فقال : يا أهل العراق ، إنه سخى بنفسى عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى

وقال للحسين وعبد الله بن جعفر : إنى قد كتبت إلى معاوية فى الصلح وطلب الأمان ، فقال له الحسين : نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية ، وتكذب أحدوثة على ! فقال له الحسن : اسكت ، فأنا أعلم بالأمر منك . ولما علم بذلك عبد الله بن عباس ، كتب إلى معاوية يسأله الأمان . ودخل الناس فى طاعة معاوية . (١)

ومعاوية مجتهد ، ما فى ذلك شك ، وقد أقره على اجتهاده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وناهيك !

قال الطبرى بسنده (٢) : خرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية فى موكب يتلقاه ، وراح إليه فى موكب ؛ فقال له عمر : يا معاوية ، تروح فى موكب وتغدو فى مثله ؟! وبلغنى أنك تصبح فى منزلك ، وذوو الحاجات ببابك ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، إن العدو بهما قريب منا ، ولهم عيون وجواسيس ، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا الإسلام عزا

فقال له عمر : إن هذا لكيد رجل لبيب ، أو خدعة رجل أريب !

فقال معاوية : يا أمير المؤمنين ، مرنى بما شئت ، أصره إليه . قال ويحك ! ما ناظرتك فى أمر أعيب عليك فيه ، إلا تركتنى ما أدرى : آمرك أم أنهاك

وإذن فما فعله معاوية من صميم الإسلام ، ولو كان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنى الإسلام حيا لأقره عليه ، وقبله منه

فالواحدة التى بألف ليست عند معاوية — وحاشاه — ولكنها عند من تجنى عليه !

° ° °

فأما ما أخذه فضيلة القاضى على بنى أمية — بالجملة — من تحكم الشهوات فى مصلحة الأمة ، واختيار شر الولاة ، وعدوانهم على الحريات ، وقتلهم العلماء كالحسين وابن جبير الخ الخ

فلعمرى ، دولة يعد منها : عبد الملك بن مروان ، الذى كان الإمام مالك إمام دار الهجرة يحتج برأيه ، والذى حمله على تأليف « الموطأ » . وسليمان بن عبد الملك الذى يعد الإمام عمر بن عبد العزيز حسنة من حسناته ؛ والوليدين عبد الله الذى خفقت فى أيامه راية الإسلام على ثلاث أرباع العالم المعمور وقتئذ ، وهشام بن عبد الملك الذى أنتم تعريب الدولة ؛ أقول : إن دولة منهما من ذكرت ، لدولة لم تغلبها الشهوات ، ولا مال بها الهوى عن الاجتهاد للأمة وللإسلام ، ولا يضيرها أن كان منها بعض الأعضاء الفاسدين ، فالكمال المطلق لله !

والقاضى خير من يعرف أنه لولا الحجاج وأمثاله لانتهى الإسلام بانقضاء عهد الخلفاء الراشدين . ولقد تمرد الخوارج على على الإمام الراشد ، ولم يفرقوا فى اتهامهم المعروف بينه وبين صاحبيه معاوية وعمرو ؛ والله يعلم أى كارثة كانت تصيب الإسلام لو تم اتهامهم على الوجه الذى أرادوه . فالحجاج والقسرى وبنو المهلب من هؤلاء الجبارين حقا ليسوا شرا ممن سلطوا

(١) طبرى ج ٦ ص ٨٠

(٢) طبرى ج ٤ ص ١٨٤